ـ ١ ـ

كل صباح اخـز ذلـك الجسـد الممدد البليـد، ـ جسدي ـ اهزه واعنفه حتى ترتج فيه كـل خلية.. عـلى مضض يتململ، يغـريني بـالتثـاؤب والتمطي، يـراوغني علّه يتصيـد لحظة للمغـافلـة، ينسـل من خلالها إلى مواصلة النـوم والبلادة، فيستنفـر فيّ كل مشـاعر الغيظ ونفـاد الصبـر، ادفـع بـه إلى حـافـة الفـراش كي اسقطه، فـربما حثـه السقـوط عـلى ان يستفيق من نوم كان قد حررني من وطـاتـه واطلقني في سبـاتـه اغط فيـه، او كنت الذي عتقتـه من ربقـة التـرويض والتجـويـع والإذلال، ونـير الاقتيـاد والتوجيه، ودفعت به إلى ممالكـه يجوس محـرراً من شروط المكان والازمنة.. كل صبـاح اوقظه، واحملـه من غمار التمطي والتثاؤب والكسـل، لألقي به تحت المـاء، اغسلـه، وانظف اسنـانه واسـوى شعـره، وأستره بثياب نظيفة، واحسب في جوفـه ماء مثلجـاً تطفيء بـرودته اشتعـاله وعطشـه، وقهوة حتى لا يتعكـر مزاجـه، واستمع بصبـر إلى املائـه المطـول لمطـالب يـومـه. يـريـد الطعـام الـذي لا اشتهي، والارتحـالات التي لا املـك سبيـلاً إليهـا، ورؤيـة الوجوه التي عزت على التوق والاشتياق.. يـرغب في كل ما لا املك، ويرغب عن كل ما يقـع على مطـال مني ومنه.. أحمله إلى مرآة اراه فيها.. احدق فيه ويحدق فيّ من داخلها، يبادلني غيظاً بغيظ وجهامة بجهامـة، او اتملقـه بابتسـامة فيخـدعني بمثلها، أبتعـد عنه فيبتعد . من نعم الله عـز وجل، أن الانسـان لا يرى وجه نفسه حتى لا يناصبه العداء، او يبادله التعالي والغـرور ـ أحمله بـأرتال من الكتب، تثقـل كـاهلـه، وازج به إلى الخروج على مضضه، أسوطه واستحثه كي يحملني إلى حيث اريـد، وفي بـدايـة الطـريق، اكتشف أنني الذي أحمله بكل ما حمل، وانني حقيقة مقيـد وسجـين تحت غـلالـة شفيفـة من جلـده.. فأستجير بالصلاة والدعاء.. طلباً للحرية والسلام.

مثـلي ربما تكـون هذه الفتـاة، مثل كـل النـاس، في حياتها المعاشة التي كانت او التي لاتزال.. يـا طالمـا خاضت اشتباكات التصدي والتحـدي، أو المراودة، والمهـادنة مـع نفسها، وكم من مـرة تركت جسـدهـا النـاحل الهـزيل وارتحلت إلى الممـالك التي لا تقبض فيهـا اليد عـلى شيء، ثم صحت سجينـة تحت جلـد يكبل فيها خطوة واحدة خارجه.. ما أبشع ان يحمـل الجسد المهدود ثقـل الجسد ويمضي.. ربمـا كانت في عالمها المعاش أشد الناس سعادة أو أعظمهم تعاسة، وربما كانت ممزقة بين التمني والاحباط، وربما كانت مضيعة وبائسة، أو جبارة وعنيدة.. في كل الحـالات كان لها حوارها الذي لم تجترح فيه كلمة، ولم يـذع منه سر..

ـ ٢ ـ

حين أمسك الفنـان فرشـاته، يـواجه بهـا سطحـاً أبيض بـلا عمق او دبيب أو صوت، كـانت في راسـه تلك الفتاة في الصـورة، يعطيها من الـدماغ قـدراً من الحـريـة تتحـرك فيـه، ومسـاحـة من المكـان محكم الحـدود، ومزقـة من الزمن تحـوطها الأسـوار، كـان يلقنهـا ما شـاء من حوار تقـوم بـأدائـه مثـل دميـة مسرحية، يامرها بالفعل ويمنعها عن الكلام..

الفنان هو الذي اتى بها بشروط مسبقة إلى دماغه وامرها بالطاعة، ولكنه حين يبدأ في إتمـام جريـرته، يتصيـد منها خطـاً بعد خط يحملـه إلى اللوحـة، او لونـاً بـدرجة دون اخـرى، كي يطلقها في النهـاية من الراس إلى اللوحة فتعصاه. يعرف أنه سيبسط هنـا مساحة من اللون الأحمر بدرجة الدم القاني، وبشكل الجزء الظاهر من ثوبها، وهي تخطو، فتاتي المساحة فارضة عليه السكون بدلاً من الحركة، وتاتي درجـة اللون مشوبة بقتامة الحزن التي تصادر اي احتمال للفرح.. الأشكال والألـوان وهي تتشكل مثـولاً لفتاة الدماغ تشتبـك مع الفنـان في حوار كحـوار الجسد، تعـرف كيف تتحـدى وتتـأبى عـلى رغبتـه، وكيف تنصـاع لكـل مـا لا يهـوى، فـلا يملـك إلا المهـادنـة والتماس السلام.. ادار لنا الفنان ظهر الفتاة، وغيب ملامح الوجه حتى لا نتعـرف فيه عـلى وجه نعـرفه، اراد ان يكون مطلقاً، حالة لانسـان، هو اي انسـان، اراد ان ينتهب مـن «خصـوصيـة» حـوار البنت في حيـاتها «عمـومية» مستبـاحة، واراد ان يستلب من الألـوان عواطفهـا، فإذا البنت تشيـح قليلاً بطـرف الوجه، لتفضـح كل مـا كان يحـاك ضدهـا.. لم يبح الفنـان بكلمة من مؤامـرتـه في ادعـاء حـوار للفتـاة يحمله إلينا لم يكن هو مادار بينها وبين نفسها، ولم يكشف لنـا عن سر من اسرارهـا، اتم اللـوحـة التي استـوت على سطحهـا الفتاة سيـدة لها، فـاستسلم، ووجـه إليها كلمـاته الاخيـرة، «تخيري لنفسـك مـا تشائين، او مـا يختاره لـك سواي..» ثم نفض يـديه عنهـا وراح يتصيد من الـدماغ من جـديد، مـا يكون اكثر انصياعاً، او عناداً..

ـ ٣ ـ

في غياب كامل من المعرفة، بحقيقة الـذي كان بـين الفتاة ونفسها في حياتها المعاشة، وما كان بينهمـا في دماغ الفنان، وفي غياب المعرفـة بسلاسـة الحوار او جفافه بين الفنان وخطوطه والوانه، نمارس بدورنـا ادعاءً جديداً لحوار جديد بـين البنت ونفسها.. نتمم جملاً ناقصة لدينا منها كلمة او كلمتان لم تنطق بهما الفتاة في الحياة، ولم تترددا في جنبات دمـاغ الفنان، وننسـج الحكايـا التي ما كـان منها شيء، ونـدعي ـ نيـابة عنهـا، وعنه ـ من المـواقف ما يـزينه الـزيف والاجتسار.. هنا نستعيد للآخـرين حياة لم تكن لهم ونبتهج، ونحكم الخطوات النهائية للمؤامرة وندعي ذكـاء يفضح تـدبير الآخـرين.. هنا نمـارس دون ان ندري مشاركة في حياة وهمية للفتاة، ومشاركة لفعل ابـداعي للفنان، كي نتمم للفن غـايته، نصنـع منـه المرآة التي لا تعكس وجوهاً لنا إلا بـاروع واحب ما نهوى..

مـا اراه ـ يقيناً ـ ليس مـا تـراه، في بنت هي الآن تمر بلحظة قصيرة ودقيقة برحابة دهر..! بانتظار ما يصدر به القـرار، ينصفهـا عـلى نفسهـا، او ينصف نفسها عليها، فحركة اليد فوق الباب تفتحه وترده في فعل واحد، بـين المراودة في اتخـاذ القرار والعـدول عنـه، ربما كـانت تريـد الخروج عـلى غـير رغبتهـا، مدفوعة بامـر، او منساقـة لرغبـة، خطت كل رحـابة الدار نحو الفعل حتى بقيت الخطوة الأخيرة لتمامه فتوقفت.. ربما كانت هي الراغبة حتى ردتها نفسهـا، وربمـا كـانت نفسهـا هي الأمـارة حتى تصدت لهـا بالعصيان، ولكن النتيجة النهائيـة بعد لم تكتمـل.. ربمـا كانت وحيـدة طـالت واستطـالت عليهـا أيام الانتظـار للـغـائب الحبيـب، تسمـع حفيف أوراق الشجر تدفع بها الريح فـوق وجه الشـارع، وتعـرف جيـداً انه حفيف الأوراق، ولكنهـا تدفـع بنفسها إلى تصـديق اوهام ـ تعـرف انها أوهـام ـ بأن تلـك هي خطوات الغائب يقترب، تجري، تجتـاز رحابـة الدار في قفزة واحدة، تفتح الباب وهي عارفة بألا أحد قـد جـاء، فيفاجئهـا وهج شمس يخطف البصر، تطـرق الراس وتنخرط في بكـاء هي التي صنعت أسبابـه..!

بيت فقير على مـا يبدو، طيني صنـع بابـه من خشب شجر لم يشذب، وغـرست فيه مسـامير من الخشب، وأسـرة من أم مقعدة، وبنت تـربّت عـلى الحيـاء من صورتها في مرآة، جاءها قادم فنهضت البنت تحـدثه من خلف الباب، يمنعها الحياء أن ترفـع وجهها رغم انها تعرف أن أحداً لن يراها، بيت فقير، يقع في نهاية زقـاق مسقوف، فهـا هـو الفنـان قـد أدخلنـا البيت، وأوقفنا خلف الفتاة نرى امتداد الـزقاق الـذي ضن بـرؤيته عـلى الفتاة، فستـره عنها بـالباب المفتـوح، يطلعنا داخله على كآبة الدار التي استحالت فيها كل الأشيـاء والألوان إلى دكنـة وقتـامـة، حتى الضـوء المراق على عتبـة الدار من خـارجها، يتشـح بغلالـة سوداء حين يخطو للداخل، ومع ذلك يضن ببصيص منه الفنان على الفتاة، فلا يطال منها طرف الثـوب أو مقدمة القدم أو ظهر الكف، يضيء فيـه جانبـاً.. حتى الباب، ذلك المنفذ الذي يمكن أن تنسرب منه الهمـوم إلى الخـارج، أو تدخـل عبـره البهجـة من الشـارع، يؤطـره الفنان بشـريط من السواد، محـال أن يكون لون طين الجدران..

للفعـل الـذي تهم بـه الفتـاة وتتـراجـع عنـه احتمالات بعدد العيون التي تطل على اللوحـة، كلها نسـج جديـد وادعـاء لحـوار لم يكن مـا دار بـراس الفنـان، قبل أن تعصـاه الألوان، تـلامس طـرفـاً من حـوار دار بـين الفتـاة ونفسهـا حـين كـانت تعيش اللحظـة، او ربما صحت جميعـاً، لا تستديـر الفتاة إلينـا، لتخبرنـا بالحقيقـة، كي نحررهـا من سجـون نودعها فيها..!

اللوحة للفنـان عبدالجبـار اليحيا، لـو قلت إنها احدى اللوحات الضائعة لفنان فذ مثل فيرمير لصدق الناس، فكلاهما، اليحيا في هذه اللوحة وفيرمير في كل اعماله تقريباً، كان صياداً ماهراً للحظة المحال، ذلـك الزمن الآخر الذي لا ندركه، الواقـع بين زمني فعـل، وفعـل لاحق، كتلك التي فتحت نـافذة ومـدت يدهـا بالماء إلى النباتات، لا نعرف هل روتها وتسترد يدها، او تزمع سقياها وتهم بصب الماء، أو تلك التي مـدت يدها، بالكاد تلامس وترا في آلـة موسيقيـة، لا نعرف هـل شدت الـوتر وتـركته للتـو يستنفد اهتـزازاتـه ونشيجه، ام انها تهم بشده وتتوفز لتحريض الأنين فيه.. كذا هذه الفتاة هنا، دخلت تهم باغـلاق الباب، او خارجة تشد إليها الباب حتى يتسع عن آخره، لم يكتمل الاغلاق او الفتح، كي يظل مقبوضاً عليه ذلك الـزمن الآخر، ومجمـداً على ثبـات أبدى، مـع انه في الحياة يندس مختبئاً في زمن فعل يسبقه او زمن فعل يلحق بـه، يظل مقبـوضاً عليـه ذلك الـزمن المحـال، وتظـل مطروحـة كل الاحتمـالات، لتضـج اللـوحـة بجمال كل ما ليس ماثلاً فيها للعين،

على نحو ماأشار مالارمية: "الجمال في اللوحة،هو في كل ما يقع خارج إطارها" ربما ..!!